الأدب الانجليزى

فى القرن التاسع عشر

للأستاذ بشير الشريق

اطلعت فى عدد الرسالة التاسع والخمسين على كلمة موجزة للأستاذ محمود الخفيف فى نقد كتاب « الأدب الانجليزى الحديث » الذى قدمه الأستاذ سلامه موسى للجمهور مؤخراً ، وقد ظهر لى من هذه الكلمة .

أولاً — ان الأستاذ مصنف الكتاب أو مؤلفه قد نعت العصر الفيكتورى مابين ١٨٣٠ — ١٩٠٠ بأنه عصر خمول فى الأخلاق والأدب ، بينما يرى الأستاذ محمود الخفيف هذا العصر من أرقى عصور الأدب الانجليزى وأحفلها بالحركات والاتجاهات الأدبية الجديدة .

ثانياً — ان الأستاذ سلامه يشير فى كتابه إلى تجديد فى الأدب الانجليزى ظهر عام ١٩٠٠ فيوافقه الأستاذ محمود على ظهور هذا التجديد ويذكر أنه ثمرة من ثمار العصر الفيكتورى الناهض .

وأنا بدورى أود أن أقول كلمة فى الموضوع أختلف فيها مع الأستاذين الفاضلين فى مسائل ، وأتفق معهما فى أخرى ، فأرجو أن توسع مجلة الرسالة الغراء صدرها لهذه الكلمة :

١ — إن مؤرخى الأدب الانجليزى الحديث لا يوافقون الأستاذ سلامه موسى على قوله : « إن الأدب الانجليزى قد اتجه طول مدة القرن التاسع عشر نحو الصياغة اللفظية دون التفكير والاقتحام » ويرونه قد حاد كثيراً حين رمى الأدب الانجليزى فى القرن التاسع عشر بالضعف والقبح والفساد لأن هذا العصر الذى يمتد من عام ١٧٩٨ إلى عام ١٨٩٢ من أزهى عصور الأدب عندهم اشتهر بمذاهبه الأدبية الجديدة وبتنوع شعرائه وكتابه الذين خرجوا فيما ينظمون ويكتبون عن أساليب القدماء . وإلى القارىء مايذكره المؤلفان الانجليزيان « وايت Wyatt » و « كلى Clay » عن الأدب الانجليزى فى القرن التاسع عشر فى كتابهما « الأدب الانجليزى الحديث . Modern English Literature » ص ١ — ٣ :

إذا كان من العسيران نقع على تاريخ يحدد لنا نهاية عصر من عصور الأدب أو بدايته ، وكان من النادر أن يتفق مثل ذلك التاريخ مع فسحة الزمان إلى قرون أو عصور أو أجيال ، فان القرن التاسع عشر قد امتاز بأنه كان ممثلاً أحسن تمثيل لدور انتقال بيّن فى الأدب الانجليزى . نشر (ورد ثورث) و (كولريدج) (قصائدهما الغنائية) قبل بزوغ فجر القرن التاسع عشر بعامين فقط فى عام ١٧٩٨ ، فكان ذلك النشر خدمة عظيمة للفن والأدب وعاملاً من أهم العوامل التى قلبت المذاهب الشعرية الأولى وهدمت النظريات الأدبية القديمة ، وكأنى بتلك القصائد الغنائية قد أعلنت نهاية الطريقة الاتباعية (Classic) فى الشعر بإحياء الطريقة الابتداعية Romanticism

إن الروح الرومانتيكية لم تكن حتى أيام (ورد ثورث) و (كولريدج) قد استيقظت والأساليب الشعرية القديمة لم تكن قد نسخت .

هذا مايذكره المؤلفان العالمان عن أهمية عام ١٧٩٨ بالنسبة لتاريخ الأدب الانجليزى ، فلنصغ إلى حديثهما عن وحدة الأدب فى القرن التاسع عشر :

« فعام ١٧٩٨ إذن يكاد ينفرد فى انه يعين بوضوح ابتداء عصر جديد للأدب ، عصر إصلاح وتجديد أطلق الشعر فيه من قيود « الاتباعيين » والقرن التاسع عشر يبدو لنا ذا وحدة تامة كما كان عصر الياصابات ١٥٦٠ — ١٦٦٠ فلم يفقد فيه الشعر الروح الابتداعية « Romantic » التى أمده بها (ورد ثورث) ومعاصروه ، وقد ظلت رواياته النثرية فى تقدم مطرد . إن أدب العلم والتاريخ والفلسفة قد امتاز فى هذا العصر بطريقته الجديدة التى أدنت مسائله وأوضحتها ، والتى اختلفت عن طريقة القرن الثامن عشر اختلاف (دارون) عن « لوك »

قد ترى الأجيال المقبلة فى مذاهب (ماثيو أرنولد) الاتباعية أو فى الطريقة (الابتداعية) الجديدة التى دعا إليها (روسيتى) و(موريس) مالم نره نحن من خطورة وأهمية ، غير أن مايمكننا قوله الآن هو أنه لم يقم حتى العهد الذى ظهر فيه (ورد ثورث) و(كولريدج) ثورة تهدم الطرق القديمة وتكون جديرة بأن تعتبر فاتحة عصر جديد .

لاينبغى أن نطنب — طبعاً — فى وحدة أدب القرن التاسع عشر أو بالفروق التى كانت بينه وبين أدب القرن الثامن عشر ، إن كل مانتوى التحدث عنه هنا هو أن نظهر أن الوحدة الأدبية كانت فيه تامة ، وأن الفارق الذى يدعونا إلى درس أدبه كأدب عصر خاص كان ظاهراً جلياً .

ولقد تظهر فوارق الشعر أكثر وضوحاً فى هـذا العصر ، يرجع ذلك إلى النزاع العنيف الذى قام بين شعراء المدرسة القديمة فى القرن الثامن عشر وبين شعراء الطريقه الابتداعية فى فجر القرن التاسع عشر ؛ أما الروايات النثرية فمن المؤكد أنه لم يدخلها تبدل ظاهر ، لأن روائيي القرن التاسع عشر كان رضيهم بوجه عام ان ينشروا فن أساتذتهم فحسب — أساتذة القرن الثامن عشر .

ولو تتبعنا حقل النقد الأدبى الآن لأمكننا أن نقع على تغير واضح فى طرقه وأساليبه وقواعده ، وهذا التغير يظهر بارزاً جلياً منـذ اليوم الذى تفتحت فيه عبقرية « كارليل » ودفعت بالنقد فى طريق جديدة . كان النقد فى الربع الأول من هذ االقرن يتفق فى أصوله وأساليبه مع نقد القرن الثامن عشر ، وكان الناقد هو من يحسن وضع الخلاصات ، ويجيـد المديح والهجاء ، حتى اذا جاء « كارليل » كان أول مبشر بطريقة النقد الحديثـــة الصحيحـة ، التى يهمها الشرح والتفسير والايضاح الاصولى للمبادىء الجديدة . »

دور ١٧٩٨ — ١٨٣٢ . وخطره .

ويقول المؤلفان الفاضلان :

مات « اسكوت ، وكريب ، وبنتام » عام ١٨٣٢ وعاش من بعدهم « وردثورث » ثمانيـة عشر عاماً أيضاً ، و « كولريدج ولامب » عامين ، و« مور» عشرين ، و« سواسى » احد عشر ، و « كامبيل » اثني عشر ، لقد أدى كل واحـد من هؤلاء الأعلام رسالته قبل عام ١٨٣٢ ، أما (كارليل) و (ماكولى) ، و (تنسون) و (هود) و (بالور) و (ليتون) والسيدة (براونك) من مشاهير الكتاب فلم يكونوا قد نشروا حتى عام ١٨٣٢ سوى خواطر صباهم . وفى عام ١٧٩٨ كان عمر كيتس وشيلى وبيرون يتراوح بين الثالثة والعاشرة ، ثم لم يأت عام ١٨٣٢ حتى كان قد مضى على وفاة الثلاثة ثمانى سنوات أو أكثر ، وهكذا تظهر لنا أهمية الخمسة والثلاثين عاماً التى بين ١٧٩٨ ، ١٨٣٢ من الناحية الفنية الشعرية .

وفى الحق أنه مامن عصر من عصور الأدب الانجليزى حتى عصر الملكة الياصابات يستطيع مناظرة هـذا الدور ١٧٩٨ — ١٨٣٢ فى سمو التصوير وسرعة الانتاج ، فقد بذّ ببدائعه الفنية الرائعة عصر الملكة الزاهر .

إن فى مجرد تعداد كتاب الطبقة الأولى والثانيـة شيئاً من الغرابة والقوة والتأثير ، يكفى أن نذكر من الشعراء (وردثورث) و (كولريدج) و (بيرون) و (شيلى) و (كيتس) و (لامدور) و (مور) و (ساوس) ، ومن الكتاب (اسكوت) و (اوستن) و (هازلت) و (ويلسن) ، حتى نجعلك تؤمن بعظمة هـذا الدور ، ثم إليك نتاج عام واحد : فى عام ١٨٠٦ ظهرت رواية (ايما) لجان أوستن ، و(تشايلد هارولد) ، (وحصار كورنث) و(سجين تشيلون) لبيرون ، و(الفناء القديم)لاسكوت ، (وحاجتنا الى الجحود) لشيلى ، وكثير من المؤلفات القيمة .

بعد كل ماتقدم ماأحسب أن القارىء يشايع الاستاذ واضع كتاب (التجديد فى الأدب الانجليزى الحديث) فى قوله : (إن الأدب الانجليزى قد اتجه طول مدة القرن التاسـع عشر نحو الصياغة اللفظية دون التفكير والاقتحام) ، وفى قوله : (ان العصر الفيكتورى مابين ١٨٣٠ و ١٩٠٠ كان عصر خمول فى الأخلاق والأدب . . الخ) بل أعتقد أنه يرى الصواب والحكمة فى معارضة الأستاذ محمود الخفيف له فى رأيه هذا .

* * *

أما هذا التجديد الذى أشار الأستاذ سلامه موسى الى ظهوره فى الأدب الانجليزى عام ١٩٠٠ ووافقه عليه الأستاذ محمود فانه فى رأى (وايت) و (كلى) لم يوجد حقيقة ، وان الشعر فى هذا العام وما أعقبه من أعوام (من عام ١٨٩٢ — ١٩١٩) قد سرى اليه الضعف ، وجهل أربابه (روبرت بريدج ، بلانت ، وليام ونسون ، ارثر سيمون ، هنا دافيـد سون ، كبلنج ، هاردى) الفرض منه ، فمالوا الى زخرف القول وتدبيج اللفظ بأنواع البديع وأوغلوا فى ذلك حتى قبحت مبانيهم وسمجت معانيهم . والى القارىء مايذكرانه فى كتابهما المشار اليه ص ٢١١ — ٢١٢ .

« رينا الشعر فى هذا الدور ١٨٩٢ — ١٩١٩ ضعفاً بيناً ؛ ليس فى صور التعبير وآداب النظم ، بل فى النجابة واتساع أفق التفكير ؛ لقد تجنب فيه معظم الشعراء السجايا النفسية وعواطف الحب وفتنة الجمال ، فاكتفوا بمغازلة الوداد العائلى ، وقراءة أفكار الرجل من غير أن يتعرضوا لخوالج نفسه ؛ كانوا أطفالاً فى تفكيرهم ونظراتهم ، قل أن يخوضوا فى البحث والجدل والتفسير ، بل كان مجرد (التبليغ) هو كل ماتصبو اليه نفوسهم ؛ يطربهم الجمال الطبيعى (الفيزيكى) أو أن يكتشفوا فى صورة اصطلح الناس على

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]